

المقدمة

بدأت فكرة هذا الكتاب عندما وجدت ان جميع الخيوط التي تتبعها لمعرفة جذور الصراع واتجاهات تطوره قد قادتني الى نهايات مقفلة لا يعود البحث وراءها ممكناً ، فكل الخيوط متقاطعة ثم تفترق ، حتى ليبدو ان هناك قوة خفية هي التي تحرك الشخوص وتتحكم بأخر القرارات التي اتخذوها او سيتخذونها في حرب هي الاعدد مما عرف تاريخ العرب حتى الآن .

وعلى مدى سنتين تلت انفجار الصراع على الخليج لم يتمكن احد من عرض الطريقة التي أدار بها العراق الصراع من جانبه ، فمعظم الذين أرحوا للحرب كانوا قد شهدوها من الضفة الأخرى البعيدة ، او قرأوها على صفحات الدرائة او شاهدوها على شاشات التلفزيون ، ولكن أحداً لم يكتب تأريخها بعد ان يكون قد أدخل نصف ساعده في النار ليلتاع بجحيمها كما يفعل شهود الأحداث الكبرى ، والمتورطون فيها ، والعارفون بدقائق أحداثها .

لذلك كان لا بد من قصة تخرج من الداخل ، على ذمة صانعيها ، ومسؤوليته ، أمام الزمن الذي يعيشه ، والزمن الذي يحلُّ من بعده ..

قد تبعث الرواية التي يعرضها هذا الكتاب إحساساً عميقاً بالمرارة ، ولكن لا جدوى عند رواية التاريخ ان يلهج الرواة بندايات الفجيعة .. يا ليت هذا لم يحدث .. يا ليت هذا حدث بطريقة أخرى .. يا ليت الذي حدث وقع في غير الزمان الذي حدث فيه ، خاصة وان الأمر هذه المرة يخص واحداً من أعند الشعوب في العالم وأشدها قدرة على الإنبعاث والتجدد ، فما ان ارتفعت أكرام الرماد لتغطي العراق إلى عنقه ، وخيل للجميع أن هذا البلد قد تراجع أربعة قرون الى الخلف حتى كان يخرج من تحت تلال الرماد مثل العنقاء ذلك الطائر الأسطوري الذي يتجدد في موته طبقاً للرواية الفينيقية القديمة .

إذن المرارة ليست هي الدرس ، وليس لمن يؤرخ إلا ان يتحدث عن الفواجع والمحن واللحظات الصعبة وسيكتشف بعدئذ أن للمحنة رحماً هو الذي يلد اولاد الضحايا وأحفادهم ، على ان الكتابة عن العراق ، وعن العراق ، هي أصعب وأعقد مما تكون في أي مكان آخر وعن أي موضوع سواه ، إنذار ليس في المسافة بين الابيض والأسود فسحة رمادية كبيرة للإجتهد ونقض الاجتهاد ، وهنا في هذه البلاد يقفل الناس على أسرارهم ، حتى الصغيرة برغم أن موطنها هو قاع النفوس لا حافة الألسن ، إلا أن أن الناس تنقب عن نيات الآخرين لأنها تبحث عن الاطمئنان وتحتاج من الغد الغامض وتستعد دائماً للإلتفات الى الخلف لملاقاة طعنة تأتي في الظهر ، إنذاراً شامئ وهو الذي يسبق اليقين ، وهذا الشك هو ناتج ستة آلاف سنة من حروب خارجية وأهلية وكوارث ومجاعات وخروج متكرر الى الحدود لملاقاة غزاة قادمين من الشرق مرة ومن الشمال مرة ومن الجنوب مرات يستبشرون المدن ويحيلون لون الأنهر من الازرق إلى الأحمر فتندرس الأرض تحت أقدامهم وتتدحرج رؤوس الرجال على قارعات الطرق ، ولكنهم ما أن يغادروا ارض العراق حتى تعود الأرحام تتدفق بالمواليد الجدد من الأولاد وأولاد الأولاد ويعود البنيان ليرتفع ثانية وتتسيد البلاد بجيوش قوية من جديد ، فكأنها دورة الزمان في بلاد لا توسط فيها ، إما أن تختار أعلى القمم أو تتدحرج إلى آخر القاع .

ولم يكن ممكناً وضع هذا الكتاب من دون الوصول الى ركام من الملفات والوثائق السرية التي كان مقدراً لها ان تبقى طي الحفظ ربع قرن آخر من الزمان على الأقل ، ولكن قدراً من التفهم والاستجابة قد مكنتني من قراءة محاضر حرب بدت صراعاً سياسياً طاحناً أكثر مما بدت حرباً عسكرية تقليدية تتقابل فيها قوتان متصارعتان ، وأستطيع التخمين بان هذه المحاضر كانت أصدق من أية أدلة أخرى ، لأنها لم تكتب أصلاً حتى تكون مادة لهذا الكتاب ، أو لسواه ، إنذاراً أن الذين وثقوها فعلوا ذلك لانفسهم ، وكانوا على قدر من الانسجام مع حاجاتهم ، وهو أمر جعلهم دقيقين في الالتقاط والتسجيل والتوثيق وتدوين المعلومات الأشد حساسية التي يتداولونها عادة في أضيق دائرة ، حتى لا تكون ضحية في الاتفاق غير المعلن بين الاشخاص الأعلى مرتبة ، وآخرين ممن هم في أدنى المراتب ، في سلم طبع الوثائق وتصويرها .

من هنا ، لم يكن من الجائز أن يكتفي صانع هذا الكتاب بما قرأ من المحاضر والملفات والبرقيات ، التي ذهبت إلى خزانات مقفلة هنا .. وهناك ، بل لجأ الى صناع الأحداث ليقابل المعلومات بشهودها ويلتقط من أفواههم وانفعالاتهم تلك التفاصيل التي لم تسجل على الورق ، وليحصد الإجابات عن الأسئلة التي لم ترو الأوراق ظمناً قارئها منها .

ثم لم يكن ذلك كله ، كافيًا ، من دون الاستماع الى عدد من القادة العرب الذين كانوا طرفاً مفدمات الصراع ، ونتائجه ، فأدلو بما يشبه بشهادات للتاريخ ، عن أحداث من وقائعها بين أصابع أيديهم ، واحتفظوا بالكثير من أسرارها ، التي لا أشك أبداً ، أن البوح بها كلها لم يكن متوقعاً ، ولكن جزءاً كبيراً منها

يبدو عليه ، الاشخاص الأقل شأناً في مواقع تهيئة القرارات الذين يحجزون أنفسهم في العدة خلف مواقع وحواجز لا تنهار عادة قبل ان يخرجوا من مواقع المسؤولية ، ويتخلصون من قيود ائتمانها .

واستغرق جمع مادة هذا الكتاب سنتين كاملتين منذ الأيام الأول لانفجار الصراع على الخليج ، وقد كانت معلومات صغار الشهود على قدر كبير من الفائدة والأهمية ، لأنهم متصلون بأخر شعيرات المواقف التي يصنع كبار القادة ، في العادة ، قرارات ولادتها ، إذ تكشف شهاداتهم عن دقائق وتفصيل ترجم الهوة هنا ، وتسد الفراغ هناك .

ولجأ الكتاب الى عرض الوقائع على مدى فصوله كلها كما وقعت ، تاركاً الخاتمة لوضع استنتاجات المؤلف واستقراءاته .. للذي حصل .. ويمكن ان يحصل ..

لكن .. هل سيقول الكتاب الحقيقة كلها .. ؟

إن أحداً لا يستطيع ان يجزم بذلك .. لأن كل عين ستظل ترى الوقائع من الزاوية التي اختار صاحبها المكوث فيها .. ولأن الحقيقة .. لم تكن في يوم من الأيام ، مطلقة ، بل ظلت نسبية في زمانها ومكانها .. وطريقة الاتصال بها ، أو البحث عنها .

لذلك يعتقد الكتاب والمؤرخون في كل مرة تقع فيها حرب ، أن أفضل رواية للأحداث ستظهر بعد زمن طويل على انتهاء الحرب ، عندما تتلاشى الشحنات العالية للعواطف ، ويقبل المتبارزون الأستماع الى الآراء التي لم يكن يسرهم سماعها ايام كانت أصوات طبول الحرب تغطي على سواها من الاصوات .

لكن أحداً لا يتوقع ان يكون هناك ، في يوم من الايام ، او حرب من الحروب ، عرض للوقائع يرضا عنه الجميع .. إنذار ان كل طرف كان يرى المسرح قبل صعود الممثلين اليه ، بطريقة تختلف عن سواه ، وسيظل ، كلما التفت الى الوراء ، يرى اثار ما جرى ، وما تخلف من بقايا النفوس والعدد والمتاريس والجثث ، من الزاوية التي وقف فيها في لحظة تداخل الصفوف ، وتراشق النيران ..

لا أحد يرى مثل أحد .. ولا عين تقبل بما تراه عين أخرى .

سعد البزاز